بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي الا بالله

النوع الثالث في التجريد

وهذا اسم كثر سمعته فقال القائل التجريد في الكلام حسن ثم سكت فسألته عن حقيقته فقال كذا سمعت ولم يزد فانتعت حينئذ نظري في هذا النوع من الكلام فالفي في روعي انه ينبغي ان يكون كذا وكذا وكان الذي دفع لي صوابا ثم مضى على ذلك برهة من الزمان ووصل الي ما ذكره ابو علي الفارسي رحمه الله وقد اوردته ها هنا وذكرت ما انضاف به من ذات خاطري من زيادة لم يذكرها وستقف ايها المتأمل على كلامه وكلامي فاما حد التجريد فانه اخلاص الخطاب لغرك وانت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه لان اصله في وضع اللغة من قولهم جردت اذا نزعته من غمده وجردت ثوبا اذا نزعت عنه اثوابه ومن هاهنا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا جد ولا تجريد وذلك في النهي عند اقامة الحد ان يجرد صاحبه على الارض وان يجرد عنه ثيابه وقد نقل هذا المعنى الى نوع من انواع علم البيان وقد تاملته فوجدت له فائدتين احداهما ابلغ من الاخرى فالاولى طلب التوسع في الكلام فانه اذا كان ظاهره خطابا لغرك وباطنه خطابا لنفسك فان ذلك من باب التوسع واظن انه شيء اختصت به اللغة العربية دون غيرها من اللغات والفائدة الثانية وهي الابلغ وذاك ان تمكن المخاطب من اجراء الاوصاف المقصودة من مدح او غيره على نفسه اذ يكون مخاطبا

السيف

بها غيره لكم اعذر وابرأ من العهدة في ما يقوله غير محجور عليه وعلى هذا فان التجريد ينقسم قسمين احدهما تجريد بمجرد والآخر تجريد بمخض

فالاول وهو المخض ان تاتي بكلام هو خطاب لغرك وانت تخاطب به نفسك على ما تقدم القول فيه فتكون قد جردت الخطاب عن نفسك وجعلته لغرك وانت تريد به نفسك وذلك كقول بعض المتاخرين وهو الشاعر المعروف بالحيص بيص في مطلع قصيدة له فقال

الم ير اك المجد في زي شاعر ... وقد نحلت شوقا فروع المنابر
كمت بيت الشعر علما وحلة ... ببعضهما ينقاد صعب المفاخر
اما وابيك الخير انك فارس ... المقال ومحيي الدارسات الغوابر
وانك اغنيت المسامع والنهى ... بقولك عما في بطون الدفاتر

فهذا من محاسن التجريد الا ترى انه اجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه كي يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة وعد ما عده من الفضايل التي نبه عليها وكل ما يجيء من هذا القبيل فهو التجريد المخض واما ما قصد به التوسع خاصة فكقول الضمين بن عبد الله من شعراء الحماسة

حننت الى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشعبا كما معا
فاحسن ان تاتي الامر طائعا ... وتخزع ان داعي الصبابة اسمعا

وقد ورد بعد هذين البيتين ما يدل على ان المراد بالتجريد فيهما التوسع لانه قال

واذكر ايام الحمى ثم انثني ... على كبدي من خشية ان تصدعا

يتهيبي نيلك الارض ما أطاب الربا وما أحسن المصطاف والمشتى معا

فانتقل عن الخطاب التجريدي الى خطاب النفس ولو استمر على الحالة الاولى لما اقتضى عليه بالتوسع وانما كان يقتضي عليه بالتجريد البليغ الذي هو الطرف الاخر ويتاول له بان غرضه من خطاب غيره ان ينبي عن نفسه سمعة الهوى ومعرة العشق لما في ذلك من الشهرة والفضاضة لكن قد زال هذا التاويل باشتماله عن التجريد اولا الى خطاب النفس وعلى هذا الاسلوب ورد قول ابي الطيب المتنبي

لاخيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

واجز الامير الذي غناه فاجبة بغير قول وغني القوم أقوال

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكا الاخشيدي بمصر وكان وصله بعلة سنية من نفقة وكسوة وطيب قبل ان يمدحه ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة وهي من غرر شعره وقد بنى مطلعها على المعنى المشار اليه من ابتداء فاتك اياه بالصلة قبل المديح وليس في التجريد المذكور في هذين البيتين ما يدل على وصف النفس ولا على تزكيتها بالمديح كما ورد في الابيات الثانية المقدم ذكرها وانما هو توسع لاغير **واما القسم الثاني** وهو غير المحض فانه خطاب لنفسك لا لغيرك ولئن كان بين النفس والبدن فرق الا انهما كشيء واحد لعلاقة احدهما بالاخر وبين هذا القسم والذي قبله فرق ظاهر وذلك اولا بان يسمى تجريدا لان التجريد لا بد فيه وهذا هو نصف تجريد لانك لم تجرد به عن نفسك شيئا وانما خاطبت نفسك بنفسك كانك فصلتها عنك وهي منك فمما جاء منه

قول عمرو بن الاطنابة

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدي او تستريحي

وكذلك قول الاخر

أقول للنفس تساؤبا وتعزية إحدى يدي أصابتني ولم ترد

وليس في هذا ما يصلح ان يكون خطابا لغيرك كالاول وانما المخاطب هو المخاطب بعينه وليس ثم شيء خارج عنه واما الذي ذكره ابو علي الفارسي رحمه الله فانه قال ان العرب تعتقد ان في الانسان معنى كامنا فيه كانه حقيقته ومحصوله فيخرج ذلك المعنى الى الفاظها مجردا من الانسان كانه غيره وهو هو بعينه نحو قولهم لئن لقيت فلانا لتلقين به الاسد ولئن سالته لتسالن منه البحر وهو عينه الاسد وهو البحر لان هناك شيئا منفصلا عنه او متميزا منه ثم قال وعلى هذا قط يكون الانسان مخاطب نفسه حتى كانه يقال لغيره كما قال الاعشى

وهل تطيق وداعا أيها الرجل وهو الرجل نفسه لا غيره هذا

خلاصة ما ذكره ابو علي رحمه الله والذي عندي فيه انه اصاب في الثاني ولم يصب في الاول لان الثاني هو التجريد الا ترى ان الاعشى جرد الخطاب عن نفسه وهو يريدها واما الاول وهو قوله لئن لقيت فلانا لتلقين به الاسد ولئن سالته لتسالن منه البحر فان هذا تشبيه مضمر الاداة اذ يحسن تقدير اداة التشبيه فيه وبيان ذلك انك تقول لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالاسد ولئن سالته لتسالن منه كالبحر وليس

هذا تجريد لحقيقة التجريد موجودة فيه وانما هو تشبيه مع الاداة
الا ترى ان المذكور هو كالاسد وهو كالبحر وليس ثم شئ مجرد عنه
كما تقدم في الابيات الشعرية واذا لم تقدر اداة التشبيه في هاتين الصورتين
والا استحال معنى الكلام فان قول القائل لئن لقيته لتلقين منه الاسد ولئن
سالته لتسالن منه البحر لابد فيه من تقدير اداة التشبيه بلا يستحيل
المعنى فانه لا يلقى منه الاسد الذي هو هذا الحيوان المعروف ولا يسال
منه البحر الذي هو هذا الماء العظيم وانما يلقى منه في الشجاعة كالاسد
وفي الجود كالبحر وكيف يطلق على مثل هذا انه تجريد ويبطل
على ابي علي قوله ايضا من وجه اخر وذلك انه قال ان العرب تعتقد ان في
الانسان معنى كامنا كائنا حقيقته ومحصوله فتخرجه الى الفاظها مجردا
من الانسان كانه غيره وهو هو كالمثال الذي مثله في تشبيهه بالاسد
وتشبيهه بالبحر وهذا ينقض بقولنا لئن رايت الاسد لترين منه هضبة ولئن
لقيته لتلقين منه الموت فان الصورة التي اوردها في الانسان وزعم ان العرب
تعتقد ان ذلك معنى كامن فيه قد اوردنا مثلها في الاسد فتخصيصه ذلك
بالانسان باطل وكلا الصورتين ليس بتجريد وانما هو تشبيه مع الاداة
وقد سبق القول بان التجريد هو ان تطلق الخطاب على غرك ولا يكون هو
المراد وانما المراد نفسك وهذا لا يوجد في هذا التشبيه المضمر الاداة بل
المخاطب هو هو لا غيره فلا يطلق عليه اذا اسم التجريد لانه خارج عن حقيقته
ومنافٍ لموضوعه فاذا قال القائل لئن لقيته لتلقين منه كالاسد ولئن

سد
سألته لتسالن منه كالبحر لم يجرد عن المقول عنه شيئا وانما شبهه نارة بالاسد
في شجاعته ونارة بالبحر في سخائه وهما امران كيف ذهب هذا على مثل
ابي علي رحمه الله حتى خلطه بالتجريد واجراه مجراه واما قوله ان العرب
تعتقد ان في الانسان معنى كامنا فيه كانه حقيقته ومحصوله فاقول
وغير العرب ايضا تعتقد ذلك فاني بالمعنى الكامن من معنى الانسانية الذي
هو الاستعداد للعلوم والصنايع فاهذا من الشئ الغريب الخفي الذي علمته
العرب خاصة وانفرد باستخراجه ابو علي رحمه الله واني بالمعنى الكامن
فيه من الاخلاق كالشجاعة والسخاء في المثال الذي ذكره حتى يشبهه بالاسد
نارة وبالبحر اخرى فليس الانسان مختصا بهذا المعنى الكامن دون غيره
من الحيوانات بل الاسد فيه من معنى الشجاعة ما ليس في الانسان ولهذا اذا بولغ
في وصف الانسان بالشجاعة شبهه بالاسد وكذلك في بعض الحيوانات
من السخاء ما ليس في الانسان ومن الامثال السائرة من ذلك لانه اذا ظفر
بحية من اخطه اخذها في منقاره وطاف بها على الدجاج حتى يضعها في منقار واحدة
منهن فالاخلاق اذا مشتركة بين الانسان وبين غيره من الحيوانات غير ان الانسان
يجتمع فيه ما تفرق في كثير منها وما اعلم ما اراد ابو علي رحمه الله بقوله
ان في الانسان معنى كامنا هو حقيقته ومحصوله الا ان يكون احد
هذين القسمين اللذين اشرت اليهما على ان القسم الواحد الذي هو خلق
الشجاعة والسخاء وغيره من الاخلاق ليس عبارة عن حقيقة الانسان اذ لا
يقال في حد حيوان شجاع ولا سخي بل يقال حيوان ناطق فالنطق الذي هو

ما يستغنى به عن السيف واذا سئل عن الملوك الذين عبرت ايامهم لا يوجد
منهم من حسن اسمه من بعده الا من حظي بكاتب خطب عنه وخم امر
دولته وجعل ذكرها خالدا بتناقله الناس رغبة في فضل خطابه واستحسانا
لبداعة كلامه فيكون خلود ذكرها في خفارة ما دونه قلمه ورقمه
اساطيره وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدو الدولة ان يرى اخبار
مناقبها في حفله ويصبح ولسانه حامد لمساعيها وبقلبه ما به من غله ولقد
احسن ابو تمام حيث قال

ساجهد حتى ابلغ الشعر شاوه وان كان طوعا بالي ولست بجاهد

فان انا لم يحمدك عني صاغر اعدوك فاعلم اني غير حامد

وهذا الذي ذكرته حق وصدق لا ينكره الا جاهل به وانا اسأل
الله الزيادة من فضله وان لم اكن اهلا لذلك فانه هو من اهله ووفقت
على كلام لابي اسحق الصابي في الفرق بين الكتابة والشعر وهو
جواب لسائل سأله فقال ان طريق الاحسان في منثور الكلام يخالف
طريق الاحسان في منظومه لان الرسل هو ما وضح معناه واعطاك سماعه
في اول وهلة ما تضمنته الفاظه واخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه
الا بعد مطالبة منه ثم قال بعد ذلك ولسائل ان يسأل فيقول من اين
جهة صار الاحسن في معنى الشعر الغموض وفي معاني الرسل الوضوح
فالجواب ان الشعر بني على حدود مقدرة واوزان مقدرة وفصلت
ابياته فكان كل بيت منها قائما بنفسه وغير محتاج الى غيره الا ما جاء على

مخالفة

وجه التضمين وهو عيب فلما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد باكثر
من مقدار عروضه وضربه وكلاهما قليل اخذ الى ان يكون الفصل في
المعنى فاعتمد ان يلطف ويدق والترسل مبني على هذه الطريق اذ كان كلاما
واحدا لا يخزى ولا ينفصل الا فصولا طوالا وهو موضوع وضع ما يهد هذا ويمر
به على اسماع شتى من خاصة وعية وذوي افهام ذكية وافهام غبية فاذا كان
متسلسلا سلس فيها وقرب فجمع ما يستحب في الاول يكره في الثاني حتى ان
التضمين عيب في الشعر وهو فضيلة في الترسل ثم قال بعد ذلك والفرق
بين المترسلين والشعراء ان الشعراء انما اغراضهم التي يرمون اليها وصف الديار
والاثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلل والاحداء
والمديح والهجاء واما المترسلون فانما يترسلون في سداد ثغر واصلاح فساد
او تحريض على جهاد او احتجاج على فئة او محادلة لملة او دعاء الى الفة او نهي عن
فرقة او تهنئة بعطية او تعزية برزية او ما شاكل ذلك هذا ما انتهى اليه
كلام ابي اسحق الصابي في الفرق بين الرسل والشعر ولقد عجبت من مثل
ذلك الرجل الموصوف بدلاقة اللسان وبلاغة البيان كيف يصدر عنه
مثل هذا القول الناكب عن الصواب الذي هو في باب ونفر النظر في باب
اللهم غفرا وسأذكر ما عندي في ذلك لا ارادة للطعن عليه بل تحقيقا
لمحل الفراغ فاقول اما قوله في الرسل هو ما وضح معناه والشعر هو ما
غمض معناه فان هذه دعوى لا مستند لها بل الاحسن في الامرين معا انما هو
الوضوح والبيان على ان اطلاق القول على هذا الوجه من غير تقييد لا يدل على

الغرض الصحيح بل صواب القول في هذا ان يقال كل كلام من منثور ومنظوم
فينبغي ان تكون مفردات الفاظه مفهومة لانها ان لم تكن مفهومة فلا تكون
فصيحة لكن اذا صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال في فهم
معانيها فمن المركب منها ما يفهمه الخاصة والعامة ومنه ما لا يفهمه الا الخاصة
وتتفاوت درجات فهمه وكفى من ذلك كتاب الله تعالى فانه افصح
الكلام وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام ومع هذا منه
ما يتسارع الفهم الى معانيه ومنه ما يغمض فيعز فهمه فالالفاظ المفردة
ينبغي ان تكون مفهومة سواء كان الكلام نظما او نثرا واذا تركبت
فلا يلزم فيها ذلك وقد تقدم في كتابي هذا ادلة كثيرة على هذا فلتؤخذ
من مواضعها واما الجواب الذي اجاب به في الدلالة على غموض الشعر
ووضوح الكلام المنثور فليس ذلك بجواب وهب ان الشعر كان كل
بيت منه قائما بذاته فلم كان مع ذلك غامضا وهب ان الكلام المنثور
كان واحدا لا يتجزى فلم كان مع ذلك واضحا ثم لو سلمت اليه هذا فاذا
يقول في الكلام المسجوع الذي كل فقرة منه بمنزلة بيت من الشعر واما
قوله في الفرق بين الشاعر والكاتب بان الشاعر من شانه وصف الديار
والاثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب
والاخذ والمديح والهجاء وان الكاتب من شانه الافاضة في سداد ثغر
او اصلاح فساد او التحريض على جهاد والاحتجاج على فئة والمجادلة لملة او دماء
الى الفة او نهي عن فرقة او تهنية بعطية او تعزية برزية فان هذا تحكم محض

لا يستند الى شبهة فضلا عن بينة واي فرق بين الشاعر والكاتب في هذا المقام
كما يصف الشاعر الديار والاثار ويحن الى الاهواء والاوطار فكذلك
يكتب الكاتب في الاشتياق الى الاوطان ومنازل الاخوان والاحباب
ويحن الى الاهواء والاوطار ولهذا كانت كتب الاخوانيات بمنزلة
الغزل والتشبيب من الشعر وكما يكتب الكاتب في اصلاح فساد او
سداد ثغر او دعاء الى الفة او نهي عن فرقة او تهنئة او تعزية كذلك الشاعر
فان شذ عن الصابي قصائد الشعراء في امثال هذه المعاني فكيف خفي عنه
قصيدة ابي تمام في استعطاف مالك بن طوق على قومه التي مطلعها

لو ان دهرا رد رجع جواب ... ام كيف اخل النظر في ديوان ابي الطيب

المتنبي وهما في زمن واحد افما تامل قصيدته في الاصلاح بين كافور الاخشيدي
وبين ولد مولاه التي مطلعها

حسم الصلح ما اشتهته الاعادي ... وكذلك لا شك انه لم يقف على قصيدة ابي عبادة البحتري في عمرو بن الليث التي مطلعها

الم تر تعلبس الربيع المكفهر ... ولو احدث في تعداد قصايد الشعراء
بالاغراض التي اشار اليها وخص بها الكتاب لاطلت وذكرت الكثير
الذي يحتاج الى اوراق كثيرة وكل هذه الفروق التي نص عليها وعددها
فليست بشيء ولا فرق بين الكتابة والشعر فيها والذي عندي في الفرق
بينهما هو ثلثة اوجه الاول من جهة نظم احدهما ونثر الاخر وهذا فرق ظاهر
الثاني ان من الالفاظ ما يعاب استعماله نثرا ولا يعاب نظما وذلك شيء
استخرجته وبنيت عليه في القسم الاول المختص باللفظة المفردة في المقالة

الاولى من هذا الكتاب وساعيد لها هنا منه شيئا فاقول قد ورد في شعر
الى تمام قوله

يهي العرس الوحشا وابن ملمة وحاش على ما يحدث الدهر خافض
وكذلك ورد في شعر اي الطيب المتنبي قوله

وهمة جئته على قدمي تعجز عنه العراس الذلل

فلفظة العرس ولفظة العراس لا يعاب استعمالها في الشعر ولو استعملا في
كتاب او خطبة كان استعمالها معيبا وكذلك ما شاكلها وناسبها
من الالفاظ وكل ذلك قد ضبطته بضوابط وحددته بحدود تفصله عن
غيره من الالفاظ فليوخذ من المقالة الاولى ولولا خوف التكرار لاعدته
هاهنا الثالث ان الشاعر اذا اراد ان يشرح امورا متعددة ذوات معان
مختلفة في شعره واحتاج الى الاطالة باز ينظم ماية بيت او ثلث ماية او اكثر
من ذلك فانه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه بل يجيد في جزء قليل والكثير
من ذلك ردي غير مرضي والكاتب لا يوتى من ذلك بل يطيل في الكتاب الواحد
اطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس او اكثر وتكون مشتملة على
ثلث ماية سطر او اربع ماية او خمس ماية وهو مجيد في ذلك كله وهذا
لا نزاع فيه لاننا رايناه وسمعناه وقلناه وعلى هذا فاني وجدت العجم يفضلون
العرب في هذه النكتة المشار اليها فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا
من اوله الى اخره شعرا وهو شرح قصص واحوال ويكون مع ذلك في غاية
الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب
المعروف بشاه نامه وهو ستون الف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس
وهو قرآن القوم وقد اجمع فصحاؤهم على انه ليس في لغتهم افصح منه وهذا لا يوجد
في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها واعراضها وعلى ان لغة العجم بالنسبة
اليها لغطرة من بحر

تم الكتاب والحمد لله وحده وصلى
الله على سيدنا محمد واله
وصحبه وسلم تسليما

الوقف الشريف الاسيادي
على ابن الحاج من المدرسة التي
انشاها بقسطنطينية
سنة ١١١٣